إيزيس وشهرزاد تلتقيان في آخر بلاد المسلمين

أ.د. جيهان زكي*

"بلغني أيها الملك السعيد، ذو الرأي الرشيد"...

عبارة لها رنين خاص على الأذن العربية، وهي من أشهر عبارات الأدب العربي التي صالت وجالت بالأذهان، وذهبت بها بعيداً. عبرت بحوراً وجسورا، وتحدت الأيام والسنين، ولم يقهرها الزمن، بل تغلبت عليه وسكنت عمق الوجدان.

اعتدنا على حكايات شهرزاد[1] التي جرت بعض أحداثها في قصور بلاد الفرس، وانتقل بنا بعضها الآخر إلى أزقة بغداد المفعمة بعبق بهاء وتجلي الدولة العباسية**، بثرائها ورقيها وسمو حضارتها.

---

* أستاذة علوم المصريات والحضارة المصرية.
باحثة فى المركز القومى للبحوث العلمية (CNRS) جامعة السربون – باريس.
نائبة بالبرلمان المصرى (لجنة الشؤون الخارجية).
محاضرة أُلقيت بالموسم الثقافي للمجمع العلمي المصري لعام 2021

** **الدولة العباسية**: نشأت الدَّولة العبّاسية بعد انتهاء المعركة الشهيرة معركة الزاب 132هـ/750م، وكان أوَّل خليفة عبّاسي هو (أبو العبّاس عبد الله السفَّاح)، وحكمت العراق ومصر والشام والحجاز وبلاد المغرب وغيرها واستمرت إلى نهاية حكم عبد الله المستعصم بالله في 656 هـ/1258م.

غير أنه مع إحدى صيحات "الديك" مبشراً بنهار جديد، نقلتنا شمس هذا الصباح إلى ضفاف النيل بسهولها الممتدة وصحرائها الوعرة، وساقتنا شهرزاد إلى جزيرة فيلة، أشهر جزر النيل وأكثرهم تأثيراً في الشخصية المصرية، والتي أطلق عليها الرحالة العرب مسمى "آخر بلاد المسلمين".

فمع بداية الليلة التاسعة والتسعين بعد الثلاثمائة، وعلى مدار إحدى عشرة ليلة، طافت شهرزاد محلقة في فضاء قصة حب جمعت بين "الورد في الأكمام" بنت الوزير إبراهيم وزير الملك الشامخ، و"أنس الوجود" أحد فرسان القصر والحرس الخاص بملك البلاد.

بورتريه لأنطوان جالان

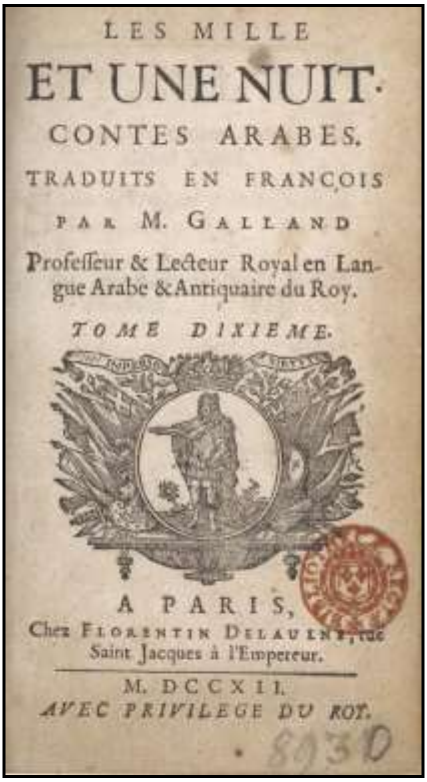

LES MILLE
ET UNE NUIT.
CONTES ARABES.
TRADUITS EN FRANÇOIS
PAR M. GALLAND
Profeſſeur & Lecteur Royal en Langue Arabe & Antiquaire du Roy.
TOME DIXIEME.
A PARIS,
Chez FLORENTIN DELAULNE, rue Saint Jacques à l'Empereur.
M. DCCXII.
AVEC PRIVILEGE DU ROY.

الغلاف الفرنسى لقصة ألف ليلة وليلة

وفي طيات قصة الحب هذه ومنحنياتها، تظهر بقايا مفردات أسطورة "إيزيس وأوزيريس" أحد أهم أساطير مصر الفرعونية، وأعمقها تأثيراً في تشكيل الهوية المصرية، فبالرغم من أن العامة يعرفون "إيزيس" و"أوزوريس"، على أنهما شخصيتان من التاريخ المصري، إلا أنهم لا يربطون تاريخهما بجعرافية المكان الذي شهد تفاصيل أسطورتهما الخالدة، والذي يقع في قلب مدينة أسوان (الحالية) حيث الصخور المتلاصقة، التي يرتفع بعضها شاهقاً ليكون بمثابة جبل في وسط الماء، ليترك أثراً في أذهان كل من عبر المنطقة أو زارها. فقد ذكر الجغرافي العربي الشريف الإدريسي في كتابه"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق": "... وإلى جبل الجنادل، تصل مراكب السودان، ومنها ترجع، لأنها لا تقدر على النفوذ في السير إلى بلاد مصر، والعلة المانعة لذلك، هو هذا الجبل، الذي هو قليل العلو من جهة بلاد السودان، ووجهه الثاني مما يلي أرض مصر، عالياً جداً"[(2)].

وعودٌ على بدء، فإن أسطورة "إيزيس وأوزيريس" تعتبر من أقدم الأساطير في العالم، حيث تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، غير أنه لم يتم البدء في تدوينها إلا مع بداية عصور الأسرات الأولى، لتصبح جزءاً لا يتجزأ من تراث الإنسان المصري، وانطلقت هذه العقيدة، فعبرت البحر المتوسط شمالاً وانطلقت جنوباً ليزداد الولع بها، حتى بلغت مشارف الشلال الخامس على النيل (جنوب السودان).

ومن أهم البقاع التي شهدت مسرح أحداث الأسطورة هي جزيرة فيلة إحدى جزر الشلال الأول، المسماة في اللغة المصرية القديمة "جزيرة الزمن"، والتي اقترن مصيرها العقائدي بجزيرة أخرى متاخمة لها، عُرفت بمسمى "بيجة" وهي معروفة في النصوص المصرية بـ "الجزيرة الطاهرة"، وذلك لكونها تحتوي على المثوى الأخير لأوزيريس حيث ترقد جثته، فحسب النصوص المنقوشة والمراسيم المدونة، فإن بشائر فيضان النيل وأول قطراته، تتكون حول سوائل جسد أوزيريس المتحلل تحت قبو مقبرته المقدسة.

ولكي نتفهم سياق الصفحات التالية، دعونا نبحر في عمق الفكر الروحي الذي تأسست عليه العقيدة المصرية القديمة، فقد تصور المصري القديم أن هناك ثلاث دورات مرتبطة بالظواهر الطبيعية تكمل بعضها البعض، وتتمثل في الدورة الكونية، أي حركة شروق الشمس وغروبها، ومن ثم حركة القمر الذي يبزغ ثم يأفل بانتظام دوري. والدورة الثانية هي الدورة الحياتية فتتلخص في رحلة الحياة (المرئية)، تليها رحلة حياة ما بعد الموت (غير المرئية)، واستمراراً لهاتين الدورتين المتماثلتين، تأتي حركة فيضان النيل لتكون بمثابة الدورة الثالثة، حيث يهب الفيضان كالمارد الأعظم من باطن الأرض في منطقة الشلال الأول، ثم يفيض على جانبي مجراه لينحسر بعد ذلك (في رحلة عودة غير مرئية) إيذاناً بدورة جديدة.

ومن هنا نستشف أهمية عودة جثة أوزيريس إلى مثواه الأخير، تأكيداً على عودة فيضان النيل، الذي يهب الحياة لكل من يعيش على أرض مصر، وفي رحلة عودة الفيضان يلعب التمساح دوراً محورياً، كونه الحيوان البرمائي الذي يساعد إيزيس في نقل جسد زوجها بعد لملمة أشلائه من هنا وهناك، ويكون بمثابة "عبَّارة" تنقل جسد أوزيريس إلى جزيرة "بيجة" أي الجزيرة الطاهرة، على أمل بدء دورة جديدة للفيضان.

فيلة .. جزيرة الزمان وملتقى الأديان

كثيراً ما يثير اسم "فيلة" خلطاً لدى البعض، وتشابكاً مع جزيرة "إليفانتين" ("آبو" باللغة المصرية القديمة")، والتي أطلق عليها اليونان هذا الاسم لاشتهارها في الزمن القديم بتجارة أنياب الفيل، أما جزيرة "فيلة" فما هي إلا اشتقاق تدرَّج من الاسم المصري القديم "با – يو – رق"، والذي نُطق باليونانية "فا . يو . رق" أو "فيراك" التي عُرِّبت إلى "بِراق/ بِلاق"، وقد أورد ياقوت الحموي في "معجم البلدان": "بِلاق: بالكسر وآخره قاف، بلد في آخر الصعيد وأول بلاد النوبة كالحد بينهما"(3).

أما اليعقوبي فيقول في كتاب "البلدان": "... ثم مدينة أسوان العظمى، وبها تجار المعادن، وهي في الجانب الشرقي من النيل، وهي ذات نخل كثير، ومزدرع وتجارات، مما يأتي من بلاد النوبة، والبجة، وآخر مدن بلاد الإسلام من هذه الناحية مدينة في جزيرة في وسط النيل، يقال لها بلاق عليها سور حجارة، ثم حد بلاد النوبة بموضع يقال له القصر على مقدار ميل من بلاق"(4).

وبالرغم من أن جزيرة فيلة هي أصغر جزر الشلال الأول، إلا أنها خطفت الأنظار وأرادت لها الأقدار أن تصبح مسرحاً للعديد من الأحداث السياسية، منذ القرن الثاني قبل الميلاد وحتى دخول الإسلام. حيث تبارى حكام البلاد من مقارِّ حكمهم بالإسكندرية، في تشييد صرح أو مقصورة لإيزيس ربة البلاد، أو تسجيل أسمائهم على جدران المعبد، أو مجرد الاكتفاء بتخليد آثار أقدامهم على هذه الأرض المقدسة.

وسرعان ما دخلت المسيحية إلى مصر فتحول جزء من قلب المعبد إلى كنيسة قبطية تحت مسمى "سان إتيان"، وصدحت من مذابحها التراتيل والترانيم القبطية، لتدوي في أرجاء النوبة وصعيد مصر.

ومع صهيل خيول عمرو بن العاص التي سرعان ما عبرت وادي النيل، حتى بلغت جنوب البلاد عام (641م)، بدأت جزيرة "فيلة" صفحة أخرى جديدة. فها هي مئذنة "بلال" تطلق الأذان، وتجمع المسلمين الذين وصلوا من أرجاء العالم القديم.

وبحلول العرب بمنطقة الشلال الأول، وارتيادهم سبل التجارة مع بلاد النوبة، اكتشف العرب صعوبة الاستمرار في الإبحار جنوباً في النيل، بسبب مياهه الوعرة، وتلاطم أمواجه الهادرة، فكانوا يستوقفون مراكبهم المحملة بالتجارة على شاطيء النيل في منطقة أسوان، ويترجلوا حاملين بضائعهم ويسيرون لمدة ثلاثة أيام حتى يصلوا إلى "فيلة"، أو "بلاق" كما أسموها، حيث رغد التجارة وسعة الأسواق ووفرة البضائع.

فقد وصفها ابن إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الأصطخري في كتاب "المسالك والممالك" بقوله: "... وأما النيل فإن ابتداء مائه لا يُعلَم، ... وهو نهر يكون عند امتداده أكبر من دجلة والفرات إذا جمعا، وماؤه أشد عذوبة وحلاوة وبياضاً من سائر أنهار الإسلام"(5).

وقد شهدت جزيرة فيلة في القرنين التاسع والعاشر حياةً ذات طابع خاص تغلب عليها السماحة والتواؤم، تعايشت فيها المعتقدات الدينية المتمثلة في عبادة إيزيس، والديانتان: المسيحية، والإسلام. إلا أن السمة المميزة للجزيرة، والتي ذاع سيطها بفضلها، كانت تجارية النزعة، حيث كان يتكدس الجميع في ساحة المعبد وقت البيع والشراء والتجارة، وكان البشر يتجولون في أسواقها وأزقة المباني الطينية التي تزايدت هنا وهناك على الجزيرة، حتى طغت على معمارها الفرعوني الأصلي.

وقد أكد المقريزي على اكتظاظ جزيرة فيلة بالسكان، فقال: "بلاق، جزيرة يحيط بها النيل، وفيها بلد كبير، يسكنه خلق كثير، وبها نخل عظيم، ومسجد جامع"(6).

ويورد المسعودي في "مروج الذهب": "وبلاق هذه مدينة في الموضع المعروف بالجنادل من الجبال والأحجار، وهذه المدينة في هذه الجزيرة يحيط بها ماء النيل... وفي

مدينة بلاق خلق كثير من الناس ومنبر ونخل كثير في كلا الشطين، وهذه المدينة إليها تنتهي سفن النوبة وسفن المسلمين من بلاد مصر وأسوان"[7].

ومما لاشك فيه أن الزائرين والرحالة والتجار قد تأثروا من طابع هذه الجزيرة الفريد، فمنهم من وقع في شباك سحرها، ومنهم من تعجب من غناها وسبح الرحمن لإغداقه على طبيعتها وعذوبة مائها، فكان نتاج رحلات هؤلاء، لا يتمثل فقط في ثراء للتجارة، وإنما أيضاً إذكاء للروح والعقل بالمعرفة والخبرات والقصص والأساطير المختلفة التي ملأت آذان هؤلاء الرحالة العرب بحكايات وقصص الباعة القادمين من قرى ونجوع الصعيد، وتراثهم الشفاهي الزاخر.

رحلة الألف ليلة.. تبدأ من "فيلة"

ومن أقاصي صعيد مصر، حمل الرحالة والتجار العرب إلى بلادهم ما ملأوا به أعينهم وآذانهم واجتروه مراراً وتكراراً، وتبادله البعض حتى أنهم في بعض الأحيان نسوا أصوله، ومنبعه. فإذا بشهرزاد وهي تسرد حكاية الورد في الأكمام وتفانيها في حب أنس الوجود، تحيي – دون أن تدري – ذكرى إيزيس "ربة الحب والجمال"، وكأن شهرزاد وهي تروي حكاية الورد في الأكمام بكبواتها ومعاناتها تعكس بطريقة عفوية ملحمة إيزيس في الدفاع عن خلود محبوبها، والتي تعد مرجعية النبل والإخلاص والتفاني من أجل المحبوب.

دعونا إذاً، نتتبع معاً سرد شهرزاد عبر الليالي الإحدى عشر لقصة حب الورد في الأكمام، حيث سنكتشف سوياً تناصها مع أسطورة إيزيس.

لوحة فنية لجزيرة فيلة – رسم الفنان ديفيد روبرتز.

بدأت شهرزاد القصة في الليلة التاسعة والتسعين بعد الثلاثمائة معلنةً: "**يحكى أيضاً أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، ملك عظيم الشأن ذو عز وسلطان، وكان له وزير يسمى إبراهيم، وكانت له ابنة بديعة الحسن والجمال، فائقة في البهجة والكمال**".

وتستطرد شهرزاد في سرد قصتها عن لقاء الورد في الأكمام بأنس الوجود، ووقوعها في غرامه، وتبادلها رسائل الحب معه، إلى أن وقعت إحدى هذه الرسائل في يد والدها الوزير إبراهيم، الذي هرع إلى زوجته مصدوماً، فما كان منها إلا أنها صلت صلاة استخارة ونصحت زوجها: "**... وسط بحر الكنوز جبل يسمى جبل الثكلى ....، وذاك الجبل لا يقدر على الوصول إليه أحد إلا بالمشقة، فاجعل لها موضعا هناك**".

وتفسر شهرزاد لاحقاً مسمى جبل الثكلى (أي الأرملة التي فقدت حبيبها) فتقول: "... **نزلت به جنية في قديم الزمان... وقد أحبت إنساناً ووقع له معها غرام وخافت على نفسها من أهلها، فلما زاد بها الغرام، فتشت في الأرض على مكان تخفيه فيه عن أهلها فوجدت هذا الجبل منقطعاً من الإنس والجن، بحيث لا يهتدي إلى طريقه أحد من الإنس والجن، فاختطفت محبوبها ووضعته فيه وصارت تذهب إلى أهلها وتأتيه خفية ولم تزل على ذلك زمنا طويلاً حتى ولدت منه في ذلك الجبل أطفالاً متعددة، وكان كل من يمر على هذا الجبل من التجار والمسافرين في البحر يسمع بكاء الأطفال كبكاء المرأة التي ثكلت أولادها أي فقدتهم فيقول: هل هنا ثكلى".**

ومما سبق يتضح لنا أن تسمية جبل الصخور في حكاية شهزاد بـ "الثكلى"، أي التي فقدت محبوبها، يؤكد على مرجعية أسطورة إيزيس في ثنايا قصة حب الورد في الأكمام.

حيث دوَّى بكاء إيزيس على فقدان زوجها، وهو ما يتجلى في صورها ونقوشها على جدران المعبد، وهي تحيط أوزيريس بجناحيها، وأخرى وهي ترضع ابنها حورس لتهبه الحياة، وهو ما كان له عميق الأثر ليس فقط على قاطني قرى ونجوع المنطقة، ولكن أيضاً على زائريها، فليس من الغريب إذاً إطلاق مسمى "الثكلى" على هذه الصخور.

أما "بحر الكنوز" فتقوم شهرزاد بذكره مرة كمكان خبَّأ في الوزير إبراهيم ابنته الورد في الأكمام لتبتعد عن محبوبها أنس الوجود، ثم تّذكُر هذا البحر الذي أسمته بـ "الكنوز" مرةً أخرى، وهي تقص رحلة الورد في الأكمام إلى القصر المنيع على الجزيرة المهجورة.

فقالت: "... **فلما فرغت من شعرها ركبت وساروا بها يقطعون البراري والقفار والأوعار، حتى وصلوا إلى بحر الكنوز** ".

بل وتقوم شهرزاد بوصف مياهه وأمواجه وهي تسرد رحلة أنس الوجود في الليلة الرابعة بعد الأربعمائة وتقول: "... **أما أنس الوجود فإنه لم يزل ماشياً في الأثر أياماً وليالي حتى أقبل على بحر عجاج متلاطم الأمواج ووصل الأثر إلى شاطيء البحر وانقطع، فعلم أنهم ركبوا البحر وساروا فيه وانقطع رجاؤه منهم**".

وها هي شهرزاد تعيد الكرَّة تلو الكرَّة، لتؤكد على ما ذهبنا إليه، من نقاط التماس بين الحكاية والأسطورة، فتذكر أن البحر العجاج متلاطم الأمواج الذي ذكرته في المقطع السابق، يتشابه مع ما أوردناه سالفاً عن فيضان النيل الذي يهب كالمارد الأعظم في منطقة الشلال الأول. والذي أكد ابن خلدون عليه في القرن الرابع عشر بوصفه التالي: ".... وبعدها علوة وبلاق، ... فينفذ فيه النيل ويصب في معوى بعيد صباً هائلاً، فلا يمكن أن تسلكه المراكب، بل يحول الوسق من مراكب السودان، فيحمل على الظهر إلى بلد أسوان قاعدة الصعيد، وكذا وسق مراكب الصعيد إلى فوق الجنادل...".

ثم استطردت وعرَّجت على جغرافيا موقع الأحداث لتؤكد على ما ذهبنا إليه من تحليل لتشابه مكان الحدث بين قصتي الورد في الأكمام وإيزيس، فقالت: "... **والتفت (أنس الوجود) يميناً وشمالاً فلم ير أحداً في البرية، فخشي على نفسه من الوحوش فصعد على جبل عال، فبينما هو في الجبل إذ سمع صوت آدمي يتكلم من مغارة فصغى إليه، وإذا هو عابد قد ترك الدنيا واشتغل بالعبادة**".

لوحة زيتية بعنوان العابد

وبالمعطيات الجغرافية السابق ذكرها في رحلة الورد في الأكمام إلى معزلها، يروق لنا أن نتخيل أن هذا الجبل العالي الذي تقع أعلاه مغارة العابد، ما هو إلا إشارة إلى الجبل المقابل لجزيرة إليفانتين بالشلال الأول، والذي يعلوه ضريح ذو قبة تعرف بـ "قُبة الهواء". وجدير بالذكر أن هذه المغارات غالباً ما سُكِنت بدءاً من قرون الإسلام

الأولى بأناس زهدوا الدنيا وعُرِفوا بقدراتهم الخارقة، وارتبط كثير منهم مع مرور الزمن بقصص السحر والشعوذة.

منظر عام للنيل فى منطقة أسوان وترى ضريح "قبة الهوى" أعلى الجبل المقابل لجزيرة إليفانتين

أما وصف القصر المنيع داخل الجزيرة المهجورة الذي يتجلى في الليلة الخامسة بعد الأربعمائة عندما تقول شهرزاد: "**... وأما ما كان من أمر الورد في الأكمام فإنها لما وصلوا بها إلى الجبل وأدخلوها القصر ورأت ترتيبه بكت، وقالت: "والله إنك مليح غير أنك ناقص وجود الحبيب فيك، ورأت في تلك الجزيرة أطياراً فأمرت بعض أتباعها أن ينصب لها فخاً ويصطاد به منها وكل ما اصطاده يضعه في أقفاص من داخل القصر، ففعل ما أمرته به، ثم قعدت في شباك القصر وتذكرت ما جرى لها وازداد بها الغرام والوجد والهيام، فبكت العبرات...**".

وهناك في هذه الليلة تفاصيل أخرى تعرج بنا على نقاط تماس جديدة لا يمكن لقاريء متعمق في التاريخ المصري القديم إلا أن يربطها بأسطوة إيزيس وأوزيريس، حيث تذكر شهرزاد "**... هذا ما كان من أمر الورد في الأكمام، وأما أنس الوجود فإن العابد قال له انزل إلى الوادي وائتني من النخيل بليف، فنزل وجاء له بليف، فأخذه العابد وفتله وجعله شنفاً مثل أشناف التبن، وقال له: يا أنس الوجود إن في جوف الوادي فرعاً يطلع وينشف على أصوله فانزل إليه واملأ هذا الشنف منه واربطه وارمه في البحر واركب عليه وتوجه به وسط البحر لعلك تبلغ قصدك، فإن من لم يخاطر بنفسه لم يبلغ المقصود، فقال: سمعاً**

وطاعة ثم ودعه وانصرف من عنده إلى ما أمره به بعد أن دعا له العابد، ولم يزل أنس الوجود سائراً إلى جوف الوادي وفعل كما قال له العابد، ولما وصل بالشنف إلى وسط البحر هبت عليه ريح، فزقه الشنف حتى غاب عن عين العابد، ولم يزل سابحاً في لجة البحر ترفعه موجة وتحطه أخرى، وهو يرى ما في البحر من العجائب والأهوال إلى أن رمته المقادير على جبل الثكلى بعد ثلاثة أيام، فنزل إلى البئر مثل الفرخ الدايخ لهغان من الجوع والعطش، فوجد في ذلك المكان أنهاراً جارية وأطياراً معردة على الأغصان وأشجاراً مثمرة صنوان وغير صنوان فأكل من الأثمار وشرب من الأنهار، وقام يمشي فرأى بياضاً على بعد فمشى جهته حتى وصل إليه فوجده قصراً منيعاً حصيناً....".

وفي رواية أخرى، عن كيفية وصول أنس الوجود إلى الجزيرة المهجورة وسط بحر الكنوز، "... **أن أنس الوجود أخذ يجوب البلاد بحثاً عن حبيبته... حتى وصل إلى الجزء الشرقي من شلال جزيرة فيلة، وظل يواصل الغناء والحكي حتى أنست له التماسيح، وحمله تمساح كبير على ظهره وأتى به إلى شاطيء الجزيرة...**" (ورد في مقال للأستاذ عبد المنعم عبد العظيم، العدد 3225 من الحوار المتمدن بتاريخ 2010/12/22).

وهو ما يعيدنا إلى الدور المحوري الذي ذكرناه في بداية المقال للتمساح الذي قام بدور "عبَّارة" تنقل جسد أوزيريس إلى جزيرة "بيجة". والذي فيما يبدو كان حاضراً في الأذهان، حتى القرنين التاسع والعاشر الهجري، ففي كتاب "المسالك والممالك" لابن إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الأصطخري يقول: "... وهو نهر يكون عند امتداده أكبر من دجلة والفرات إذا جمعا، وماؤه أشد عذوبة وحلاوة وبياضاً من سائر أنهار الإسلام، وفي هذا النهر يكون التمساح...".

وتستمر شهرزاد في رواية قصة حب الورد في الأكمام وأنس الوجود إلى أن تصل إلى الليلة السابعة بعد الأربعمائة، والتي بلغ فيها أنس الوجود أعتاب القصر المهجور، ودق على بابه الذي يحرسه شخص من أصل فارسي، وتقول: "... **بلغني**

أيها الملك السعيد أن أنس الوجود، لما فرغ من شعره التفت إلى صاحبه الأصبهاني وقال له: ما هذا القصر ومن هو الذي بناه؟ قال له: بناه وزير الملك الفلاني لابنته خوفاً عليها من عوارض الزمان وطوارق الحدثان وأسكنها فيه هي وأتباعها ولا تفتحه إلا في كل سنة مرة لما تأتي إليهم مؤونتهم فقال في نفسه: قد حصل المقصود ولكن المدة طويلة".

والمدة التي تذكرها شهرزاد في الفقرة السابقة، والمرتبطة بإعطاء المؤن للورد في الأكمام، تتناص مع فكرة الزيارة السنوية التي كانت تقوم بها إيزيس لمحبوبها أوزيريس في قبره على جزيرة بيجة المتاخمة، حيث كانت تهدي إليه القرابين وتسكب المياه العذبة على روحه.

"... وأما ما كان من أمر الورد في الأكمام فإنها لم يهنأ لها شراب ولا طعام ولا قعود ولا منام فقامت وقد زاد بها الغرام والهيام ودارت في أركان القصر فلم تجد لها مصرفاً فسكبت العبرات... فلما فرغت من شعرها طلعت إلى سطح القصر وأخذت أثواباً بعلبكية وربطت نفسها فيها حتى وصلت إلى الأرض وقد كانت لابسة أفخر ما عندها من اللباس وفي عنقها عقد من الجواهر وسارت في تلك البراري والقفار حتى وصلت إلى شاطئ البحر فرأت صياداً في مركب دائر في البحر يصطاد فرماه الريح على تلك الجزيرة فالتفت فرأى الورد في الأكمام في تلك الجزيرة، فلما رآها فزع منها وخرج بالمركب هارباً فنادته وأكثرت إليه الإشارات،... فلما سمع الصياد كلامها أرسى مركبه على البر وقال لها: انزلي في المركب حتى أعدي بك إلى أي موضع تريدين فنزلت في المركب وعوم بها فلما فارق البر بقليل هبت على المركب ريح من خلفها فسارت المركب بسرعة حتى غاب البر عن أعينهما، وصار الصياد لا يعرف أن يذهب ومكث اشتداد الريح مدة ثلاثة أيام ثم سكن الريح بإذن الله تعالى ولم تزل المركب تسير بهما حتى وصلت إلى مدينة على شاطئ البحر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح".

وفي الوقت الذي استطاعت فيه الورد في الأكمام الهروب من الجزيرة، كان أنس الوجود يتأمل القصر، الذي يُذّكِر بهيبة ساحة معبد إيزيس وأقفاص الصقور المقدسة هنا وهناك.

وفي ثنايا هذه الرحلة، نكتشف أيضاً تناصاً آخر مع أسطورة إيزيس، عندما تروي شهرزاد في الليلة السادسة بعد الأربعمائة: "**.... فلما دخل رأى بحيرة عظيمة وحولها أشجار وأغصان وفيها أطيار في أقفاص من فضة وأبوابها من الذهب وتلك الأقفاص معلقة على الأغصان والأطيار فيها تناغي وتسبح الديان**".

وكانت الورد في الأكمام قد بلغت مكان آمناً لدى ملك عظيم السطوة استمع إلى حكايتها ووعدها بأن يجمعها بمحبوبها أنس الوجود، وأرسل لأبيها يعلمه بوجود ابنته عنده وأنه يريد منه أن يبعث له أولا بأنس الوجود، تقول شهرزاد: "... **ثم إنهم ساروا (الوزير والد الورد في الأكمام وحراسه) حتى وصلوا إلى القصر وطرقوا الباب فانفتح الباب، فخرج لهم خادم، فقبل يده** (يد الوزير والد الورد في الأكمام) **ثم دخل القصر، فوجد في فسحته رجلاً فقيراً بين الخدامين وهو أنس الوجود فقال لهم: من أين هذا؟** (لم يتعرف على أنس الوجود من بؤس حاله، وقد أصبح شكله كالمجاذيب) **فقالوا له:**

إنه رجل تاجر غرق ماله ونجا بنفسه وهو مجذوب فتركه، ثم مشى إلى داخل القصر فلم يجد لابنته أثراً فسأل الجواري التي هناك فقلن له: ما عرفنا كيف راحت ولا أقامت معنا سوى مدة يسيرة".

وفي آخر تفصيلة تحاكي أسطورة إيزيس وأوزيريس، تذكر شهرزاد على لسان الوزير إبراهيم (والد الورد في الأكمام) عندما وجد الثياب البعلبكية مربوطة في شرارف واصلة إلى الأرض، فعرف أنها (ابنته) نزلت من ذلك المكان، وراحت كالهائج الولهان، فقال: "**لاحيلة في قضاء الله ولا مفر من قدره وقضاه**". والتفت فرأى هناك طيران، غراباً وبومة، فتشاءم من ذلك..."

وصورة الطيرين أعلى القصر تتناص مع صورة من أشهر صور معبد إيزيس، وهي تلك التي نراها في الحائط المتاخم لمنظر جسد أوزيريس على ظهر التمساح.

وهي تمثل الطائران اللذان يرمزان لمصر العليا والسفلى، والممثلان أعلى صخور جزيرة بيجة، في نقش بديع وفريد من نوعه في "الريبرتوار" التصويري المصري.

وجدير بالذكر أن هذه المنطقة من معبد إيزيس بنقوشها المكتنزة بالعقيدة المصرية، كانت أهم محطات زيارة الحج السنوية التي كان يقوم بها قاطنو منطقة أسوان والنوبة حتى القرن التاسع.

ومنظر عودة التمساح من ناحية، والطيران أعلى جبل بيجة من ناحية أخرى، يعتبران من أهم السمات التصويرية للمكان، وليس من العجيب أن يكون لها تأثير على ذاكرة الزائرين والرحالة العرب.

ويتصاعد الخط الدرامي لهذه القصة العجيبة المليئة بالأحداث إلى أن يلتقي أنس الوجود بمحبوبته الورد في الأكمام، ويتزوجا، لتنتهي قصة حبهما الخالدة نهاية سعيدة، على غرار قصة حب إيزيس وأوزيريس التي كانت وستظل مرجعية لقصص الحب الخالدة.

المصادر

(1) محمد عمر ألتونجي، معجم أعلام النساء، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، ص. 113.
(2) الشريف الإدريسي، أبي عبد الله محمد بن محمد: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971، ص 33.
(3) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995.
(4) اليعقوبي، أحمد ين أبي أسحاق: البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 172.
(5) الاصطخري، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد: المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، 2004، ص 48.
(6) المقريزي، أحمد بن على المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار "الخطط المقريزية"، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ج1، ص 349.
(7) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبى الحسن على بن الحسين، المكتبة التوفيقية، ب ت، ص 176.